ابن المعتز.. الشاعر الخليفة

لواء أ.د.عبدالمقصود حجو

أستاذ زائر بالجامعات المصرية والعربية

مصر

المقدمة

ولد عبدالله بن المعتز في عام (247 هجرية –861 ميلادية) ونشأ في البلاط العباسي نشأة ترف ودلال وتتلمذ على يد كبار العلماء في اللغة والأدب والثقافة فنشأ محبًا للأدب والفن والشعر منذ طفولته أتراكُ القصر وخدامه قتلوا أباه المعتز ونُفيَ عبدالله إلى مكة وهو في مقتبل العمر، وعاش في كنف جدته التي صُودِرَتْ أموالهُا أيضًا.

وعندما تولى عمه المعتمد الخلافة أمر بعودته ومن معه إلى سامراء عاصمة الخلافة الجديدة، بعد أن استقرت الأوضاع على يد أخيه الموفق الذى كان من أحزم بني العباسي وأنبغهم في إدارة شؤون السياسة والحرب، وهو الذي قضى على ثورة الزنج وثورة الصفارين ضد حكم أخيه المعتمد.

وطوال تلك الفترة كانت جدة شاعرنا هي المعنية بتربيته، فأحضرت له المعلمين في الفقه والحديث والأدب، وانكب عبدالله على الدروس وكان ذكيًا رقيق المشاعر، فانطلق الشعر على لسانه وهو في التاسعة وهو ما لفت انتباه العديد من شعراء عصره لمدحه والثناء عليه وعده من الشعراء المعدودين في زمانه.

ويتوفى عمه الموفق فيخلفه ابنه المعتضد وكان مهيبًا شديد البأس مثل أبيه ويسلمه عمه المعتمد مقاليد الدولة، ثم يتوفى المعتمد فيصبح المعتضد هو الخليفة ويعود إلى بغداد، ويصبح شاعرنا من ندمائه وتقبل الدنيا عليه إلى حين.

وبعد عودته إلى سُامراء ثم إلى بغداد، ظلت حياته مضطربة تعاني ابتلاءات الدولة العباسية، فانصرف يلتمس السلوى في اللهو والمجون فأخذا جانبًا من حياته، ولكن هذا الجانب لم يستطع أن يُخفي صورة علَم من أعلام الشعر العربي ومؤلف له حضوره في تاريخ الثقافة العربية. ولما أُطيح بالمقتدر في سنة 296 هجرية ـ بويع عبدالله بن المعتز بالخلافة لكن خلافته لم تستمر أكثر من يوم وليلة. فقتل قتلة أبيه ومات ابن المعتز مقتولاً في تلك السنة فكان حلقة في سلسلة مهزلة الإطاحة بخلفاء بني العباس على أيدي الأتراك السلاجقة منذ عهد جده المتوكل المتوفى سنة 247 هجرية.

أخذ ابن المعتز الأدب عن أساتذته وأساطينه في ذلك العهد أمثال أبي العباس المبرد المتوفى 286 هجرية وأبي العباس ثعلب المتوفى سنة 291 هجرية وهما أشهر علمين من أعلام تلك المرحلة. واختص به محمد بن هبيرة الأسدي المعروف بصعوداء وعمل له رسالة فيما أنكرته العرب على أبي عبيد القاسم بن سلام.

ومن مؤدبيه: البلاذري، وكان قد سعى لدى قبيحة جدة ابن المعتز في تأديبه، ومن أساتذته أيضًا: ابن أبي فنن واستمر ابن المعتز ينهل من الأدب العربي فتكونت لديه ثروة لغوية هائلة أتاحت له قرض الشعر بهذا الأسلوب الفريد والمتميز.

وقد اشتهر ابن المعتز بأنه كان أديبًا وشاعرًا وناقدًا، واسع الثقافة بصير بصنعة الألحان، كما كان راويًا وإخباريًا ألّف

العديد من الكتب منها: البديع، وأشعار الملوك، وطبقات الشعراء، والجوارح والصيد، ثم كتاب الجامع في الغناء.. فضلاً عن ديوان شعر في فنون المدح والفخر والوصف والصيد والقليل من الهجاء.

شعر بن المعتز

من أشعاره الجميلة:

قالوا اعتللت، فسل عني وعن خبري
ألم أبت باكيًا، لا أطعم الغمضا
قولوا لمكتوم: يا سمعي ويا بصري
علّمتُ جسمي من أجفانك المرضا

وكان يكثر من استخدام الصور والتشبيهات فجاء شعره بديعًا رائعًا مثل قوله يغازل مليحة مكتملة بالسحر في عينها حور:

كم فيهم من مليح الوجه مكتمل
بالسحر يطبق جفنيه على حور
لاحظته بالهوى حتى استفاء له
طوعًا وأسلفني الميعاد بالنظر
وجاءني في قميص الليل مستترًا
يستعجل الخطوة من خوف ومن حذر
فقمت أفرش خدي في الطريق له
ذلاً وأسحب أذيالي على الأثر
ولاح ضوء هلال كاد يفضحنا
مثل القلامة قد قدت من الظفر
وكان ما كان مما لست أذكره
فظن خيرًا ولا تسأل عن الخبر

وكما كان شاعرنا رقيقًا بديعًا في غزله، كان أيضًا بسيطًا سلسًا في فخره بجده العباسي وأعمامه وآبائه في شجاعتهم وبلاغتهم:

إنا لننتاب العداة وإن نأوا
ونهز أحشاء البلاد جميعا
ونقول فوق أسرة ومنابر
عجبًا من القول المصيب بديعا
قوم إذا غضبوا على أعدائهم
جروا الحديد أزجة ودروعا
وكأن أيدينا تنفر عنهم
طيرًا على الأبدان كن وقوعا

وقد حزن شاعرنا كثيرًا على وفاة ابن عمه وصديقه الخليفة المعتضد ورثاه بقصيدة تشعر وأنت تقرؤها وكأن قلبه ينفطر ودموعه تنهمر، حيث يخاطبه وهو في قبره بمنطقة الطاهرية غرب بغداد بقوله:

يا ساكن القبر في غبراء مظلمة
بالطاهرية مقصى الدار منفردا
أين الجيوش التي كنت تسحبها
أين الكنوز التي لم تحصها عددا
أين السرير الذي كنت تملؤه
مهابة، من رأته عينه ارتعدا
أين الرماح التي غديتها مهجا
مذ مت ما وردت قلبًا ولا كبدا

وعلى الرغم من ذلك إلا أنه وقع في الفخ ولم يستطع مقاومة بريق السلطة، وهو الأديب الشاعر.. فجر على نفسه البلاء، فقد توفي المعتضد وكان ابنه المكتفي غائبًا، فقام مؤنس رئيس الحرس بجمع وجوه العباسيين لأخذ البيعة له، ثم أفرج عنهم ومنهم ابن المعتز، ثم يتوفى المكتفي بعدها بسنوات قليلة ويخلفه ابنه المقتدر وسنه لا يتجاوز الثالثة عشرة، فاعترض عليه الناس بحجة أنه لم يبلغ الحلم فكيف يتولى الخلافة، ويقودهم محمد الكاتب الذي تمكن من خلع المقتدر وتولية ابن المعتز مكانه، فيرد الأخير الجميل له ويقلده الوزارة، ولم يستغرق الأمر سوى ليلة واحدة ونصف نهار، حيث تمكن مؤنس رئيس الحرس من تجديد البيعة للمقتدر والقبض على ابن المعتز بعد أن حاول الهرب.. وقتله والتمثيل بجثته!

قتل ابن المعتز ولم يتعظ لما حدث لجده ولأبيه.. وينعاه معاصروه من الأدباء والشعراء.. ومنهم علي بن بسام، بقوله:

لله درك من ميت بمضيعة
ناهيك في العلم والآداب والحسب
ما فيه لو ولا لولا تنقصه
وإنما أدركته حرفة الأدب

مات شاعرنا بعد أن عرض نفسه إلى مالا طاقة له به، ولكنه ترك ديوانًا كبيرًا من الشعر، نقتبس منه هذه الأبيات الجميلة:

أما ترى الدهر لا تفنى عجائبه
والدهر يمزج معسور بميسور
وليس للهم إلا شرب صافيه
كأنها دمعة من عين مهجور

ولابن المعتز العديد من الكتب مثل الزهر والرياض والبديع ومكاتبات الإخوان بالشعر وكتاب الجوارح والصيد والسرقات وأشعار الملوك والآداب وحلى الأخبار وغيرها كثير تزخر بها المكتبة العربية.

كتبه المنشورة

- كتاب البديع: طبع في لندن من قبل المستشرق كارتشكوفسكي، ويعد ابن المعتز أول من ألف في البديع، ثم حذا حذوه العلماء والأدباء والنقاد، صنفه، وذكر غير واحد من الأدباء إنه أول بحث منهجي في الشعر والبلاغة.

كتبه غير المنشورة والمفقودة:

ومن كتبه المفقودة كتاب (أشعار الملوك)، (الجامع في الغناء)، (الصيد والجوارح)، (حلى الأخبار)، (الزهر والرياض)، (السرقات)، (مكاتبات الإخوان بالشعر)، و(كتاب الفصول القصار)، وكتاب في أخبار شارية وعريب المغنيتين ورسائل ابن المعتز في النقد والأدب والاجتماع.

ديوان ابن المعتز

يحفل ديوان ابن المعتز بالكثير من القصائد في شتى الفروع في الغزل في المديح وفي الرثاء.

نأخذ مقتطفات منها قد حققها الكثير من الأدباء العرب والمستشرقين على السواء.

فيقول:

وولينَ ما بالين من قد قتلنه
بلا ترَة تُخشَى ولا قَتلِ أعدائي
رَددتُ سهامي عنك بيضًا وخُضِّبت
سِهامُك في قلبٍ عميدٍ وأحشاءِ
فلم أرَ مثلَ المنعِ أغرى لحاجة
ولا مثلَ داءِ الحبّ أبرح من داءِ

رسم تخيلي للشاعر ابن المعتز

ويقول:

يا مَن به قد خسرتُ آخرتي
لا تُفسِدَن بالصّدودِ دُنيائي
أهمُّ بالصبر، حين يُسرفُ في
هَجريَ، والصّبرُ نازحٌ، نائي
حتى إذا ما رأيتُ طَلعَتَه
غيرني ما رأيتُ عن راءِ

الخلاصة

يُعد ابن المعتز من الشعراء الصفوة في العصر العباسي وأول من أدخل البديع وغيره من صنوف البلاغة، إلا أنه نظرًا للظروف السياسية التي ألمت به لم ينل قسطًا وافرًا من انتشار شعره إلا أن بعض المستشرقين قد دأبوا على دراسة ديوانه دراسات مستفيضة.

المراجع

1 - ديوان ابن المعتز.
2 - 296 هـ - 908 م) شعر ابن المعتز . د راسة وتحقيق: د. يونس أحمد السامرائي (بغداد، 1398 هـ- 1978 م).
3 - الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى بن عبدالله بن العباس بن محمد (ت 335 هـ).
4 - الأوراق قسم أخبار الشعراء، عُني بجمعه: ج. هيورث. دن (مصر 1355 هـ- 1936 م) ص 28. 946.
5 - الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد (ت 356 هـ- 967 م)، الأغاني، القاهرة، 1357.